Received	15 February 2026	Accepted	15 February 2026
Revised	30 February 2026	Published	30 June 2026
Volume	8, (June) 2026	Pages	102-116
http://doi.org/			

To cite:
Mohamed Haji Ibrahim, et al. 2026. Al-ḥikmah wa al-zuhd wa al-qanāʿah fī shiʿriyyat al-Imām al-Shāfiʿī: qaṣīdat daʿ al-ayyām tafʿal mā tashāʾ anmūdhajan. *Al-Qalam International Journal of Arabic Studies.* Vol. 8 (June 2026): 102-116
DOI: http://doi.org/

الحكمة والزهد والقناعة في شاعرية الإمام الشافعي، قصيدة دع الأيام تفعل ما تشاء أنموذجاً

Wisdom, Asceticism, and Contentment in the Poetry of Imam al-Shāfiʿī: The Poem “Let the Days Do as They Please” as an Example

Mohamed Haji Ibrahim[1], Wan Azura Wan Ahmad[2]
& Hossam Attaallah Elsaied Attaallah[3]

الملخص

تهتم هذه الدراسة بالتعرف إلى شاعرية الإمام الشافعي رضي الله عنه، وكشف أسلوبه الشعري الأدبي في إيصال ما يدور في خلجاته وأفكاره من حكم ومواعظ، والتي كانت مغمورة بالزهد والتقوى والعفة. فالإمام الشافعي معروف بفقهه وهو إمام أحد المذاهب الأربعة، لكنه كان شاعرا لبقا، رهيف الحس، عفيف الطبع، رقيق الكلام، قد سطر قصائد عديدة وفي موضوعات وأغراض كثيرة وإن كانت جملتها في الحكمة والزهد والقناعة لكنها كانت في سمو الأعمال الأدبية. وهذا الأمر لعله مستور عن الكثير من الناس، ولهذا جاءت هذه الدراسة لكشف هذا الأدب المستور الموجود عن الإمام الشافعي. وستكون الدراسة تحليلية بلاغية أدبية في قصيدة "دع الأيام تفعل ما تشاء"، وهي إحدى القصائد الجميلة التي تتحدث عن القضاء والقدر، ومشيئة الله في خلقه، في أرزاقهم، ومقاديرهم وآجالهم. وهذه دراسة على المنهج الوصفي التحليلي، سنقوم باستخراج الجوانب البلاغية، وصورها

[1] Prof Madya Dr. Mohamed Bin Haji Ibrahim (Corresponding Author), Fakulti Pengajian Bahasa Utama, Universiti Sains Islam Malaysia. mohamed@usim.edu.my.
[2] Dr. Wan Azura Bt Wan Ahmad, Fakulti Pengajian Bahasa Utama, Universiti Sains Islam Malaysia. wanazura@usim.edu.my.
[3] Dr. Hossam Attaallah Elsied Attaallah, Fakulti Pengajian Bahasa Utama, Universiti Sains Islam Malaysia, hossam@usim.edu.my

الفنية، ثم تحليلها ووصف ما فيها من أساليب أدبية بلاغية، معتمدين في هذا على الذوق الحسي والأخيلة الأدبية.

الكلمات المفتاحية: القصيدة الشعرية، الأغراض الشعرية، الحكمة والزهد والقناعة، الصور الفنية، الجوانب البلاغية.

Abstract

This study explores the poetic talent of Imam al-Shafi'i (may God be pleased with him), revealing his literary style in conveying his innermost thoughts and wisdom, imbued with asceticism, piety, and chastity. While Imam al-Shafi'i is known as a jurist (Faqih), and is the founder of one of the four major schools of Islamic jurisprudence, he was also an eloquent poet, possessing a refined sensibility, chaste nature, and gentle speech. He composed numerous poems on a wide range of subjects and themes, all of which focus on wisdom, asceticism, and contentment, yet are distinguished by their high literary quality. This aspect of his work is perhaps unknown to many, and this study aims to unveil this hidden facet of Imam al-Shafi'i's literary output. The study will be a rhetorical and literary analysis of his poem "Let the Days Do What They Will," (Da`ie Ayyamu Taf`alu Ma Tasha`uo) one of his beautiful poems that addresses predestination, divine decree, and God's will concerning His creation, their sustenance, their destinies, and their lifespans. This is a descriptive-analytical study in which we will extract the rhetorical aspects and artistic imagery, then analyze and describe the literary and rhetorical devices employed, relying on sensory perception and literary imagination.

Keywords: *Poetry, poetic themes, wisdom, asceticism, contentment, artistic imagery, rhetorical aspects.*

المقدمة

هذه دراسة تحليلية على شعر إمام أحد المذاهب السنية الأربعة، الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي. فإن كانت الجوانب الفقهية للشافعي قد غلبت على شخصيته، وعرف بذلك على امتداد العصور والدهور في تاريخنا الإسلامي، إلاّ أن شخصيته الأدبية واللغوية لا تُسْتَثْنَى من ذلك. بل له في الميدان الأدبي باع طويل قدّم فيه الكثير. ولعل السبب في تقصير الدراسات الأدبية تجاه إقامة دراسة عن منتجات الإمام الشافعي الأدبية هو أن صيته في العالم الإسلامي لم يكن في هذا المضمار. فأصبح هذا حاجزاً نفسياً لدى بعض الدارسين في أن يوجّهوا عنايتهم بدراسة الأدب والشعر عند الفقهاء الشعراء كأمثال الشافعي. وهذا ما أشار إليه الدكتور مجاهد مصطفى بهجت في كتابه (ديوان الشافعي).وهذه الدراسة ستتناول تحليلا نقدياً على شعرٍ من أشعار هذا الإمام الجليل. وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على أربعة مراجع

رئيسة. بدأنا بالتطرق إلى معرفة نسب الشافعي ونشأته، وأخلاقه وعلمه، ثم التوجُّه إلى معرفة شاعريته وفصاحته ولغته. وتحليل القصيدة المختارة وهي قصيدة (دع الأيام تفعل ما تشاء).

وعسى أن نكون قد وفقنا في هذا العمل، سائلين المولى عز وجل أن يحببنا في العلم وفي طلبه.. سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم..

من هو الإمام الإمام الشافعي

اسمه ونسبه

"هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدّ بن أدد"، (نعيم زرزور، ١٩٨٤م، ص١٣). القرشي الهاشمي، المكي.

"والشافعي من هاشمين: هاشم بن عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف إذ تزوّج الأخير من الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف، فولدت له عبد يزيد جد الشافعي"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٠). وبهذا فالشافعي يلتقي نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد المطلب فهو من هاشم عم رسول الله.

أما أمُّه "فكانت السيدة فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه"، (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٥). فنجد من هذا النسب العظيم من كلتا الجهتين أن الشافعي ينتمي إلى عائلة من أشراف قريش، إلاّ أنها استوطنت بأراضي فلسطين بعد أن شتتهم الاضطهادات السياسية وأخرجتهم من بلادهم الأصلية بأرض الحجاز.

ولادته ونشأته

غزة هي مسقط رأس الشافعي، وغزة ميناء واقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بأرض فلسطين. فقد ولد الشافعي فيها في شهر رجب من سنة ١٥٠هـ.

وبعد الوضع بأيام جاءت الأخبار من بغداد إلى غزة بأن الإمام أبا حنيفة النعمان توفي وأنهم دفنوه بالرصافة في شرق بغداد، (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٦).

توفي أبوه وهو ابن سنتين. فأصبح قرة عين والدته، وعادت به إلى مكة المكرمة مستقر قرابته. ونزل بحي بجوار الحرم يقال له شعب الخيف. فما بلغ السابعة حتى حفظ القرآن الكريم، وأخذ الحديث النبوي، يقول عن نفسه: "حفظت القرآن وأنا ابن سبع، وقرأت الموطأ وأنا ابن عشر سنين وأقمت في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٠).

كان الشافعي من عائلة بسيطة جداً، يظهر عليها دلائل الفقر الشديد. وعندما ترعرع، أرسلته والدته إلى الكُتّاب، ولكن لم يكن في طاقتها دفع نفقات تعليمه، فأهمله المعلم وانصرف عنه. إلاّ أن هذا الأمر كان

السبب في نبوغ الشافعي لأنه اجتهد في أن يكون دائمًا على مقربة من المعلم عندما يعلم التلاميذ الدرس. فكان يحفظ جيداً من المعلم كل ما كان يحفظه للصبيان. وبهذه الوسيلة قويت قوة الحافظة عند الشافعي.

ولما بلغ التاسعة من عمره، جالس العلماء في المسجد الحرام، وحفظ الأحاديث وعلوم القرآن وغيرها. وكان لشدة فقره أنه كان يجمع العظام ليكتب عليها مذكراته عن المحاضرات التي يتلقاها عن أساتذته، كما كان يلتقط قصاصات القراطيس من دواوين الحكومة ومصالحها. وعندما كثرت القصاصات والعظام عنده وضاق بها حجرته، صمم الشافعي على أن يحفظ كل ما جمعه في تلك القصاصات والعظام عن ظهر قلب ومن ثم يستغني عنها. وفعلاً قام بما نوى عليه وأتم حفظها واستغنى عنها وخرج من الحجرة وهو يقول (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٨):

عـلمي معي حيثـمـا يمت ينفعني صدري وعـــاء لـه لا بطـــن صنـدوق
إنْ كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وبهذا أصبحت قوة الحافظة عند الشافعي إلى حد مدهش جداً، حيث بلغت به الدرجة أنه إذا فتح كتاباً ليحفظ فيه اجتهد أن يغطي بطرف كمه للصحيفة اليسرى مخافة أن يقع نظره عليها فيحفظها قبل أن يحفظ الصحيفة اليمنى.

أخلاقه وعلمه

"عرف الشافعي برفعة خلقه، فلم تعرف له صبوة في شباب ولا كهولة. وعرف بتقواه وعبادته وإقباله على كتاب الله تعالى، فقد كان يختم القرآن مرة كل يوم، ويختمه في رمضان مرتين في اليوم الواحد"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١١) . وكيف لا، وقد حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من العمر.

كما عُرف الشافعي بورعه وتقواه، وبزهده وتقشُّفه، وبعفَّته وترفُّعه، وبكرمه وقناعته. فكانت هذه الصفات بمجملها وازعاً للركون إلى الزهد والتصوُّف. وامتزجت هذه الصفات بالفقر وبساطة المعيشة التي رافقته منذ نعومة أظفاره. فصمد أمام هذه كلها وجالدها وهو في مقتبل صباه.

وكان الشافعي جميل الصوت جداً في قراءته للقرآن الكريم. "حتى أن علماء مكة كانوا وهو في الثالثة عشرة من العمر إذا ما أرادوا البكاء من خشية الله تعالى جمعوا بعضهم وقالوا: هيا بنا إلى ذلك الصبي المطَّلبي ليسمعنا القرآن فيبكينا. فإذا جاؤوا وسمعوه تساقطوا بين يديه من كثرة البكاء، وكان إذا رأى منهم ذلك أمسك عن القرآءة شفقة عليهم. كما كان يقرأ القرآن قراءة الفاهم لمعناه، الواقف على دقائق مغزاه، فكان مثلاً إذا قرأ قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) اختار أن يقرأ (أمّرنا) بتشديد الميم، أي جعلنا مترفيها أمراء ففسقوا فيها" (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٩).

وعُرف الشافعي بالسخاء والكرم. فكان يرى في المال وسيلة تدفع الإنسان إلى الملاذ والترف. فكان إن فاض لديه بقيَّة رزق وزّعه على المعوزين من الناس، بل لم يصل به الحد إلى هذا فحسب، فيحكى أن الشافعي أخذ في مجلس الرشيد يجاوب على كل سؤال في مختلف العلوم بما يسر له الخليفة سروراً عظيماً. ثم طلب منه الخليفة أن يعظه، فأخذ الشافعي يعظ الرشيد وعظاً تصدّعت له القلوب حتى بكي الرشيد، ولما أفاق الرشيد من بكائه، أمر له بألفي دينار، فنهض الشافعي ورفض أن يأخذ الجزاء عن موعظته، ثم استأذن

بالإنصراف. وفي المرة الثانية، "أمر له الرشيد بألف دينار، فتقبلها الشافعي، ولما خرج الشافعي أمر الرشيد غلامه سراجاً باتباعه حتى يرى ماذا يفعل بالمال، فجعل الشافعي يفرق ذلك المال قبضة قبضة على رجال حاشية القصر حتى انتهى إلى خارج القصر وما معه إلاّ قبضة واحدة فدفعها إلى سراج، وقال له: انتفع بها. فرجع سراج إلى الرشيد وأخبره بما رأى، فقال الرشيد: ألا إنّ بني المطلب ما فارقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شرف ولا سخاوة" (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٢١).

كما روي أيضاً عن خبر الشافعي "أنه لما طال شعره ورثّ زيّه من عثاء السفر، فَكَرِهَ أن يلقى الناس هكذا، وتقدّم إلى مزيّن، فاستقذره لما نظر إلى زيّه، وقال له: امضِ إلى غيري! فاشتدّ على الشافعي أمره، فالتفت إلى غلام كان معه، فسأله: إيش معك من النفقة؟ فردّ الغلام: عشرة دنانير. فقال الشافعي: ادفعه إلى المزيّن"، (حكمت صالح، ١٩٨٤م، ص ٧٣).

وهذه الرواية تشير إلى ظاهرتين كان الشافعي يعتز بهما. وهي أن المال ليست الغاية بذاته، فقد دفع ما عنده للمزيّن ليشعره بحقارة النقود إزاء كرامة الإنسان. والثانية حرصه على النظافة والعناية بالمظهر لباساً وزينة، على ألاّ يخرج ذلك إلى الإسراف والتبرّج.

وكانت القناعة من أعظم شمائله، ونراها تسود في معظم أشعاره، إن لم تكن كلها. فالقناعة ترتبط بالزهد والتصوف التي عُرف بهما الشافعي طيلة حياته. فكانت القناعة عنده رأس الغنى، ومفتاح السعادة، ساد بها – رحمه الله – في حياته، وبعد مماته.

أما عن علمه، فقد كان علمه، تعلما وتعليما، حياته كلها رحمه الله. جال أقطار العالم الإسلامي طالباً له، متعلماً ومعلماً. فقد جالس الشافعي العلماء في المسجد الحرام وهو لم يتجاوز العشر سنوات. أخذ العلم والفقه عن أئمة الفقه والتفسير والحديث واللغة.

وقد شهد للشافعي علماء عصره بالفضل والعلم كابن حنبل، حيث يقول فيه ابن حنبل بعدما ودّعه في بغداد: "لقد كان الفقه قفلاً ففتحه الله بالشافعي"، (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٢٦). وقال أيضاً "ما مس أحدٌ محبرة ولا قلماً إلاّ الشافعي في عنقه منه"، (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٤٠).

وللشافعي مؤلفات وكتب كثيرة، نذكر منها كتابه المشهور (الحجة)، الذي رواه عنه أربعة من البغداديين: الكرابيسي، والزعفراني، وأبو ورد، وأحمد بن حنبل. وألّف أيضاً (الرسالة) و (الأم). كما ألّف كتاب (أحكام القرآن) وكتاب (اختلاف الأحاديث)، وكتاب (إبطال الاستحسان)، وكتاب (جماع العلم)، وكتاب (القياس)، وكتاب (الرد على محمد بن الحسن)، وكتاب (اختلاف مالك والشافعي)، وكتاب (اختلاف على وعبد الله بن مسعود)و (سير الأوزاعي) وكتاب (مسند الشافعي).. وظل هذا الإمام الجليل يكتب ويقرأ ويدرس، والمرض يحاصره، حتى سقط القلم من يده، واستأثرت به رحمه الله تعالى.

شاعريته وفصاحته ولغته

"اجتمع إلى قرشية الشافعي ذكاؤه، وقدرته الفائقة على الحفظ وحدبه ودأبه على طلب العلم، فأوتي خيراً كثيراً في عربيته وفصاحته ولغته"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٢). حيث أنه لزم قبيلة هزيل في البادية لمدة سبع عشرة سنة، الذي اعتبرها أفصح العرب. فأخذ يتعلّم كلامها ويأخذ بطبعها. فحفظ

الأشعار، وأخذ الأخبار وأيام العرب منها. وقد شهد العلماء بفصاحته ولغته. يقول عبد الملك بن هشام النحوي صاحب المغازي عنه "الشافعي ممن تؤخذ عنه اللغة"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص٣٩). وقال الإمام أحمد بن حنبل فيه: " كلام الشافعي في اللغة حجة"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٣). ويقول الربيع فيه: "لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه ولو أنه ألّف هذه الكتب على عربيته – التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة – لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه – غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضّح للعوام"، (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٤٠).

وقال الجاحظ "نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم، فلم أرَ أحسن تأليفاً من المطّلبي (الشافعي) كأنّ كلامه درٌّ إلى در"، (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٤٠).

أما عن شاعريته، "فلم يعرف الإمام الشافعي شاعراً كما عرف فقيها، وإن كان حظه في الأولى لا يقل عن الثانية، وقد نبّه القدماء إلى قدرته على قول الشعر، ولكن شهرته الفقهية غطّت على شاعريته، فعرف شاعراً غلب عليه الفقه – كما قيل عن أبي نواس – فقيه غلب عليه الشعر، والخليل بن أحمد وأبو بكر بن دريد معدودون من العلماء الشعراء، ويميز القفطي شعره فيجعله أجلّ من شعر الفقهاء"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٦).

لقد كان للشافعي منزلة كبيرة في الشعر وروايته. بدأت صلته به منذ شبابه، حيث أنه أخذ من الهذليين أشعارهم وحفظها، وأعجب بها لنشأته في قبائلهم ورضاه عن طباعهم، لأنه يرى أن هذيل كانت أفصح العرب. وقد اتصل الأصمعي بالشافعي يأخذ عنه شعر الشنفرى وشعر هذيل ويتعلم منه روايته وشرحه وفصيحه وغريبه. يقول الأصمعي في هذا " صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي"، (محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩٠م، ص٥٦).

وقد شهد القدماء بشاعرية الشافعي. "فقد ذكر الصولي عن المبرد أنه قال : كان الشافعي من أشعر الناس آدب الناس" (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٦).

والشافعي الشاعر؛ قد تفرقت أشعاره في كتب التراث حتى جمعها "زهدي يكن"، ونشرها في بيروت، ثم جمعها "محمد عفيف الزغبي" منذ أكثر من ربع قرن؛ فاستدرك بها ما فات زهدي يكن".

ويتميز الشافعي الشاعر بأنه لم يكن يتكسب بالشعر، ولم يأخذه وسيلة للتقرب إلى ذي جاه، أو مال، أو سلطان؛ فقد كان الشعر يصدر عنه تلقائيًّا معبرًا عما يدور في ذهنه؛ لذلك انتشر شعره بين الناس، وأصبح كثير منه من الأمثال السائرة التي يتداولها الناس، ولا يعرف معظمهم أنها من شعره.

ويُعتبر معظم شعر الإمام الشافعي من شعر التأمل، والسمات الغالبة على هذا الضرب من الشعر هي "التجريد، والتعميم، وضغط التعبير"، وهى سمات كلاسيكية؛ إذ إن مادتها "فكرية" في المقام الأول، وتجلياتها الفنية هي: المقابلات، والمفارقات، التي تجعل من الكلام ما يشبه الأمثال السائرة، أو الحِكَمَ التي يتداولها الناس.. وإذا كان شعر التأمل ينزع إلى التجريد والتعميم؛ فليس معنى ذلك أنه خالٍ تمامًا من الصور، والتشبيهات الكلاسيكية؛ ولكنها تشبيهات عامة لا تنم عن تجربة شعرية خاصة؛ فشعر التأمل ينفر من الصور الشعرية ذات الدلالة الفردية، ويفضل الصور التي يستجيب لها الجميع؛ فالشافعي يقدم لنا أقوالاً، نصفها اليوم بأنها تقريرية. وعليه، "كانت موضوعات شعره تتفق مع سياق حياته وتنسجم مع

شخصيته الفقهية... وهكذا بعدت شعر الإمام الشافعي عن الأغراض التقليدية مديحاً وهجاءً، ولكنه كان صورة أمينة لحياته وواقع عصره"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٩)

وقد بقيت مجالس الشافعي حافلة بالأدب والشعر، وإن علا كعبه في الفقه وما يتصل به من العلوم الشرعية، فقد كان رواد مجلسه من أهل القرآن والسنة، ومن أهل العربية والعروض والنحو والشعر. ولتنوع رواد حلقته التي كانت تبدأ عقب صلاة الصبح حتى قرب انتصاف النهار، وصفها الكرابيسي بالنبل فقال "ما رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي، كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٨).

وفاته

تجمع المراجع على أن الشافعي توفي سنة مائتين وأربع هجرية (٢٠٤هـ) في يوم الجمعة، التاسع والعشرين من رجب، عن عمر ناهز الرابعة والخمسين عاماً. وكان سبب وفاته "أنه ألحّ عليه داء البواسير، وكان ينزف وهو راكب في أواخر أيامه، حتى يملأ ثوبه وخفّه وسرجه. حتى ثقبوا له الفراش ووضعوا الطست تحته. وداء البواسير يصيب أمثال الشافعي الذي أمضى عمره ممتطياً راحلته، ومنتقلاً بين أقطار العالم الإسلامي، فإن استقر كان جلوسه للتدريس سبباً آخر يوثق احتمال إصابته بمثل هذا الداء"، (حكمت صالح، ١٩٨٤م، ص ٢٨). رحمة الله على محمد بن إدريس الشافعي، حبر الأمة وإمام الأئمة.

دع الأيام تفعل ما تشاء

١. دَعِ الأيّامَ تفعَلْ ما تَشاءُ ... وَطِبْ نفْساً إذا حَكَمَ القَضاءُ
٢. ولا تَجْزَعْ لحادِثَةِ الليالي ... فما لِحوادِثِ الدُّنْيا بَقاءُ
٣. وَكُنْ رجُلاً على الأهْوالِ جَلْداً ... وَشيمَتُكَ السَّماحَةُ والوفاءُ
٤. وإنْ كَثُرَتْ عُيوبُكَ في البَرايا ... وسِرُّك أنْ يَكونَ لها غِطاءُ
٥. تستَّرْ بالسَّخاءِ فَكُلُّ عيْبٍ ... يُغَطّيهِ كما قيل السَّخاءُ
٦. ولا تُرَ للأعادي قَطُّ ذُلاً ... فإنَّ شَماتَةَ الأعدا بَلاءُ
٧. ولا تَرْجُ السَّماحَةَ مِنْ بخيلٍ ... فما في النَّارِ للظَّمْآنِ ماءُ
٨. وَرِزْقُكَ ليْسَ يُنْقِصُهُ التأنّي ... وليْسَ يَزيدُ في الرِّزْقِ العَنَاءُ
٩. ولا حُزْنٌ يدومُ ولا سُرورٌ ... ولا بُؤْسٌ عَلَيْكَ ولا رَخاءُ
١٠. إذا ما كنت ذا قلبٍ قنوعٍ ... فأنْتَ ومالكُ الدُّنيا سواءُ
١١. ومنْ نَزَلَتْ بِساحتهِ المنايا ... فلا أرضٌ تَقيهِ ولا سماءُ

١٢. وأرضُ الله واســـــعـةٌ ولكـنْ إذا نـــــزلَ القضا ضـاقَ الفضـاءُ
١٣. دعِ الأيَّام تغْـــــدِرُ كُـلَّ حيـــنٍ فما يُغْـــــني عَنِ الـــــــمـوْتِ الـدواءُ

معاني المفردات

يجدر بنا التعرف إلى بعض معاني مفردات الأبيات ليتسنى لنا شرح الأبيات بشكل واضح.

الكلمة	معناها
طب	من طاب يطيب طيباً. لذ وحلا وحسن وجاد. وطابت النفس بكذا، انشرحت.
الجزع	ضد الصبر، ويقال جزع من الشيء وأجزعه غيره.
لحادثة الليالي	مصائبها.
الأهوال	جمع هول، من هلل يهول هولاً، ومنه هال الأمر فلاناً أفزعه، والأهوال هنا المخاوف.
جلداً	شديداً قوياً.
شيمتك	خُلُقُك.
البرايا	المخلوقات.
الأعادي	مفدرها، عدو.
الأعدا	الأصل الأعداء وحذفت الهمزة لضرورة الشعر.
السماحة	الجود والعطاء.
البؤس:	الحاجة والفقر، والبأس العذاب.

تحليل القصيدة

بادئ ذي بدء، يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه القصيدة قد فهرسها الدكتور مجاهد مصطفى بهجت من ضمن القصائد التي انفرد بنسبته صاحب الجوهر النفيس إلى الشافعي. ولم يجعلها من ضمن المختار من المنسوب إلى الشافعي. فقد ذكر أن عدد أبيات هذه القصيدة أربعة عشر بيتاً، إلاّ أننا وجدنا هذه القصيدة في ديوان الإمام الشافعي الذي جمعه الأستاذ نعيم زرزور، وكذلك ديوان الشافعي تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في ثلاثة عشر بيتاً فقط. بينما وجدنا القصيدة عند الأستاذ حكمت صالح في دراسته لشعر الشافعي في تسعة أبيات لا غير. إضافة إلى أننا استقرأنا هذه القصيدة منذ فترة من كتيّب لمجموعة من أغاني المطرب الإماراتي علي عبد الستار، بيْد أنّ هناك بيتاً يخالف البيت الذي نحن بصدده الآن. والبيت الذي نذكره هو:

يغـطّى بالسَّماحـةِ كـلُّ عيـبٍ وكَـمْ عيـبٍ يغطّيـهِ السَّخـاءُ

بينما البيت الذي وجدناه في المراجع التي بين أيدينا يقول:

تستَّـرْ بالسَّخـاءِ فَكُـلُّ عيْـبٍ يُغطّيـهِ - كما قيل - السَّخـاءُ

وقد أشار الدكتور مجاهد في مقدمة كتابه إلى حرصه على توثيق الأشعار المنسوبة إلى الإمام الشافعي: "أني كنت أحسّ بالحرج كلما عزمت على نشر ما انتهيت إليه من شعر الإمام الشافعي مخافة التقصير في جنبه، أو التفريط في صنعة الديوان كما كنت أتهيّب من الإمام الشافعي مما لا يليق به علماً بارزاً في تاريخنا الإسلامي - فأضاعف الجهد وأتابع العمل للوصول إلى الأمثل والأكمل، آخذاً نفسي بالتدقيق والتحقيق والفحص والدراسة لأشعاره المنسوبة إليه.."، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص٥). ولعلنا الآن نستطيع التطرق إلى الملامح الفنية لهذه القصيدة.

الأفكار والمعاني

لقد كانت لنشأة الشافعي ومراحل أطوار حياته أثر كبير في تكوين أفكاره الشعرية ومعانيها. فهذه القصيدة نموذج واضح فيما ذكرناه آنفاً، حيث أن القصيدة بأكملها تستمدّ أفكارها ومعانيها من منابع القرآن الكريم والمدرسة النبوية.

فالشافعي، من خلال هذه القصيدة، يبرز لنا أنه نموذج ومثال في القناعة والزهد والسخاء. والقصيدة تعبّر عن صدق عواطفه، ورؤيته لهذه الدنيا الفانية، وهي كلها منطقٌ من خلال مسيرته. فمعاني القصيدة منبثقة من معاني القرآن الكريم. فنجد مطلع القصيدة:

دَع الأيّـامَ تفعَـــلْ ما تَشـــاءُ وَطِبْ نَفْساً إذا حَكَـمَ القَضـاءُ
ولا تَـجْـزَعْ لـحادِثَـــةِ الليالـي فمـــــا لِحوادِثِ الدُّنْيا بَقـــاءُ

تحمل معنى الآية الكريمة: (قلْ لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا)، ومعنى قوله تعالى: (إنّا لله وإنا إليه راجعون). فالشافعي أراد بهذين البيتين أنْ يوصل فكرة سامية بمعانٍ قرآنية جميلة، وهي أن هذه الأحداث والمصائب التي تحلُّ على المسلم ماهي إلاّ أقدارٌ شاء العلي القدير قضاءها، أنظر إلى قوله: ولا تجزع لحادثة الليالي، فالجزع ضد الصبر، وحين قال (لا تجزع)، قصد (اصبر)، لكنه ما أتى بكلمة (اصبر) بل قال (لا تجزع)، ولعل هذه الكلمة جاءت لتناسب قوله في البيت السابق (وطب نفسا)، فتطييب النفس معناها اشرح صدرك، وطمئن نفسك، وارضَ بما حكم القضاء والقدر، لذا نجده أتى (لا تجزع)، أي لا تخف ولا ترهب نفسك لمصائب الأيام، بل اصبر عليها، ولا تخذل نفسك بها فإنها فانية ذاهبة لا تبقى بإذن الله ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

فأفكار هذه القصيدة كلها نابعة من مشاعر الشافعي الزاهدة، وروحه المغمور بالمعاني القرآنية والإحاديث الشريفة، وبتعاليم الإسلام السمحة.

اللغة والأسلوب (الوزن والقافية)

هذه القصيدة من البحر الوافر التام، وهو من البحور الصافية ذات التفعيلة الواحدة، يكون العروض والضرب فيه مقطوفان، وتفعيلاته:

مفاعـلتن مفاعـلتن فعـولن مفاعـلتن مفاعـلتن فعـولن

وهي قصيدة همزية تقع في ثلاثة عشر بيتاً. وتدور هذه القصيدة حول الإيمان بالقضاء والقدر. فقد جاء في أول أبياتها في قوله (وطب نفساً إذا حكم القضاء). والقصيدة كلها إن تتبعناها بيتاً بيتا، نجدها تنبع من نفس مطمئنة، امبثق هذا الاطمئنان عن قرار الإيمان العميق بأن كل ما يحدث للإنسان مقدّر ومكتوب، وما على النفس إلاّ أن ترضى بقضاءها وقدرها. وهي بهذا تعالج وساوس الشيطان ونزغ النفس الأمّارة.

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن شعر الشافعي سهل ممتنع. فيه سلاسة التركيب، وعفوية التعبير. وقد تميَّزت القصيدة بوضوح المعاني، وسهولة الألفاظ، لا تعثر فيها على غريب ولا صعب. ونلاحظ أيضاً، تمكن الإمام الشافعي من التلاعب في الألفاظ، من حيث التقديم والتأخير، وذكر مضاداتها. فنجد في قوله:

وَرِزْقُـكَ ليـْسَ يُنْقِصُهُ التأَنّـي وليـْسَ يَزيدُ فـي الرِّزْقِ العَنَـاءُ

أنّه أتى في صدر البيت بلفظة (ينقصه)، وبلفظة (التأني)، ثم جاء في عجز البيت بمضاد تلك الألفاظ (الزيادة)، و(العناء) وهذا ما يسمى بالمقابلة البلاغية العفوية. كما نرى حسن التقديم والتأخير الذي أوجده عندما قدّم الرزق على (ليس ينقصه)، بينما أخّرها عن (ليس يزيد).

ومثال آخر في التلاعب بالألفاظ، وحسن ترتيبها ونظمها في السياق قوله:

يغـطى بالسماحـة كـلُّ عيـبٍ وكَـمْ عيـبٍ يغطّيـه السَّخـاءُ

فقد جاء بلفظة (السماحة) و(السخاء) في البيت، كانت الأولى في صدر البيت والأخرى في عجز البيت، وكلتاهما - أي السماحة والسخاء - صفات حسنة محمودة تعني اللين وسهولة التعامل، والجود والكرم، بيْد أن الشاعر أتى بلفظة (العيب) ليجعلها النقص في سماحة الرجل وفي سخاءه، ولم يأتِ بأضادها كالشدة والقسوة والبخل والطمع. وبهذا نجد الشاعر جمع كل تلك الصفات المذمومة بل وكل ما ينقص من قيمة السماحة والسخاء في كلمة (العيب)، وفتح للمتلقي باب تصوير عيب السماحة والسخاء كيفما يشاء.

كما أن الجميل في البيت استخدام الشاعر (يُغطَّى) تارة و(يُغطِّي) تارة أخرى. فتغطية العيب حاصلة بالسماحة وبالسخاء، لكن نظم الشاعر للكلمات أعطى للبيت تصويرا بلاغية جميلا في قضية التقديم والتأخير. ففي صدر البيت قدَّم السماحة على تغطية العيب، أي أن السماحة صفة ملازمة في رجل هو صاحب الكرم والجود، فإذا جاءت منه فإن كل عيب فيه مستور لا يُرى لأن الكرم أصل فيه. أما عجز البيت فالأمر يختلف، حيث قدم تغطية العيب على السخاء، أي أن الرجل له عيوب، ولكنه عندما يبدي سخاء وكرما وحسن معاملة، فإن فِعْلَه هذا يغطي شيئا من عيوبه، وكأن السخاء ليست ملازمة فيه، فإذا أبداها وجاءت منه غطَّت شيئا من عيوبه. ولعلنا ندرك أن الغرض من التقديم والتأخير هنا هو التخصيص، ففي الأولى خصص الشاعر السماحة بأنها الأصل في سمات الرجل، أم العيب فيصدره منه، بينما في الثانية، خصص العيوب بأنها تصدر منه باستمرار فالإنسان ليس نعصوما من الأخطاء والعيوب، لكن ما يصدر منه من سخاء قادر على تمرير عيوبه وتغطيتها.

والجدول التالي يوضح كيفية تمكّن الشاعر في اختياره للألفاظ في هذه القصيدة:

البيت	اللفظة	مضادها
الثامن	ليس ينقص	ليس يزيد
الثامن	التأني	العناء
التاسع	الحزن	السرور
التاسع	البؤس	الرخاء

ثمَّ إننا نجد أن القصيدة خلت من التصنُّع في التعامل مع الصورة الشعرية. فقد كانت تلك السذاجة في اختيار الألفاظ لدليل على أنّه لم يكن ليتصنّع السعي وراءها واجتذابها بين قوافيه. لذا جاءت القصيدة غير متكلّفة. والذي شجّع الشافعي على ذلك أنه "كان يعتمد جودة اللفظة وحسن التركيب وسلامته في التعبير المباشر عن الفكرة التي يريد تضمينها، وهو بذلك متأثّر بالتقنين اللفظي الذي يهمّ الفقهاء والاقتصاد باللفظ في التعبير المباشر"، (حكمت صالح، ١٩٨٤م، ص٢٤٣).

الصور الفنية والجوانب البلاغة في القصيدة

يتحتّم علينا إدراك عواطف الشاعر ومشاعره وهو يبني أبيات قصيدته كي نصل إلى الصور الفنية التي ترسَّمت في ذهنه. فقد تولّدت هذه الأبيات من نفسٍ عفيفة زكية، ونيَّة صافية، تشبّعت الروح بالإيمان في إيصال الرسالة. فالغرض هو إيصال الكلام وإفهام معناه بشكل صحيح، ولكن في صورة أدبية وبصياغة شعرية، يتسنّى حفظها والإقتباس بها.

فالبيت الأول والثاني يحث الشافعي المؤمن على أن يطيب نفساً ولا يجزع من المصائب والكوارث التي يصادفها دون أن تحسب عقباها، فما كُتِبَ كائن. وبهذين البيتين، نجد الشاعر يهيئ للمؤمن وازعاً دينياً للإنطلاق نحو الصبر على الشدائد، والقوة على مواجهة المصائب، قال تعالى (قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا). ولهذا قال الشاعر: دع الأيام تفعل ما تشاء. وفي قوله هذا مجاز عقلي واضح حين جعل للأيام قدرة الفعل والمشيئة. مع إيمانه اليقين بأن كل ما يصيبنا كان على ما كتب الله لنا. ثم أردف قائلا: وطب نفسا إذا حكم القضاء. فكل ما تفعله الأيام بك وبغيرك مكتوب ومقدَّر، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

ثم ننتقل إلى هذين البيتين:

وإنْ كَثُرَتْ عُيـوبُكَ في البَرايـا وسِـــــــــــــرُّك أنْ يَكـونَ لها غِطـاءُ

تستَّـرْ بالسَّخـــاءِ فَكُـلُّ عيْبٍ يُغطّيـهِ - كما قيل - السَّخـاءُ

نلاحظ صورة فنية رائعة حين جعل الشاعر (الأسرار) حقيقة مكشوفة، أي أن ما يفعله الإنسان مكشوف مرئي، لكنك أيها الإنسان ترجو أن يكون على أفعالك وعيوبك غطاء، فإذا تغطَّت تلك العيوب، صار سراً. لكن الجميل عندما رآى الشافعي أن السخاء هو الستر لكل عيب. من أجل هذا يُرْجى أن تكون أعمالنا مسوَّرة بالسماحة، وبالوفاء، وبالسخاء، وليست مقرونة بالتثبط، والهروب والتواكل.

ثم ننتقل إلى الأبيات الآتية التي نرى فيها الشافعي يحث المؤمن على المثابرة والإجتهاد في حلِّ قضاياه، بيْد أن هناك نكتة بلاغية موجودة في قوله:

ولا تـرْجُ السَّماحة مِنْ بخيـــــلٍ فمـــــــــا في النَّار للظَّمْآنِ مــاءُ

وهذه النكتة البلاغية هي التشبيه الضمني. فالتشبيه الضمني هو "تشبيه لم يصرح فيه بأركان التشبيه على الطريقة المعلومة، بل يفهم من معنى الكلام وسياق الحديث"، (أحمد مصطفى المراغي، ٢٠٠٨م، ص١٩٦). فانظر كيف جعل البخيل ليس من أهل الرجاء، فقد ظهر التشبيه الضمني من خلال تشبيه حالة مَنْ يطلب المساعدة مِن البخيل، بحالة الظمآن الذي يبحث في النار عن الماء ليرتوي عطشه، ودلالة التشبيه بين المشبه والمشبه به في البيت هو عدم طلب الشيء إلا من أهله.

ثم يقول:

وَرِزْقُـكَ ليـسَ يُنْقِصُـــــــــهُ التأَنِّـي وليْـسَ يَزيدُ في الرِّزْقِ العَنَــاءُ

وقد تطرَّقنا إلى تحليل هذا البيت في لغته وأسلوبه الذي ظهر فيه جمال الطباق والتقابل. وها نحن نعود إلى البيت نفسه لنحلل الصورة الفنية فيه. ففي البيت حكمة في قضية كسب الأرزاق، وفتح بوابات الزهد. فالأرزاق بيد الله، ولا يعني هذا أنك إن تمهلت أو استعجلت في أمرٍ فإنه سيكون السبب في زيادة رزقك أو نقصه، بل أن كل ما هو حادث مدبرٌ ومكتوب. لكن الأسلوب البلاغي الذي جاء به الشاعر من تقابل في الألفاظ وتقديم هذه عن تلك أعطى لقضية الرزق في زيادته أو نقصه صورة فنية أدبية يدركها صاحب الذوق الأدبي.

كما أن الحزن والسرور، والبؤس والرخاء لا يدوم على الإنسان طيلة حياته. ومفتاح السعادة في كل الأحوال، سواءاً أكانت مرضية أو مستعصية، يتمثَّلُ بالقناعة. "فلما رأى الشافعي أغنياء عصره وأثرياء زمانه قد غُلّت أيدي أكثرهم ولبسوا جلود البخل، أعرض بعفّته عنهم، ونأى بترفّعه عن نوالهم، ذلك أنه عُرف بالقناعة التي احتلّت صدراً واسعاً من ديوانه"، (حكمت صالح، ١٩٨٤م، ص٧٧-٧٨) ، يقول رحمه الله:

ولا حُـزْنٌ يـــــدومُ ولا سُـــــرورٌ ولا بُـــــؤْسٌ عَلَيْكَ ولا رَخــاءُ
إذا مـــــا كُنْتَ ذا قَلْبٍ قَنـــــوعٍ فأَنْتَ ومــالِكُ الدُّنْيــا سَـــواءُ

نلاحظ في هذه الأبيات التضاد الذي لا يرتبط بالجانب اللفظي فحسب، بل بالمعنى والصورة أيضاً، وهذا ما يسمى الطباق. والطباق: "هو الجمع بين معنيين متقابلين"، (أحمد مصطفى المراغي، ٢٠٠٨م، ص٢٦٩). فالحزن قابله السرور، ثم جاء بالبؤس قابله الرخاء. ثم جاء بالمقابلة أيضا، والمقابلة هي "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب"، (أحمد مصطفى المراغي، ٢٠٠٨م، ص٢٧١). فانظر إلى المقابلة التي جاء بها عند الفقر مع القناعة، وقابلهما بالغنى وامتلاك الدنيا. فهذا التلاعب بالألفاظ والتقابل في المعاني تكسب الشاعر حجة وحكمة في فن صياغته الشعرية، "وهي التي كان ينتهجها الشافعي في معظم قصائده وأبياته، حتى غدت وكأنها سمة من سمات شعره. وقد جاء هذا

الأسلوب من باب الحرص على الإقناع، ويبدو أثر القياس في مضمار الفقه منعكساً في بعض أبعاده على هذا الأسلوب .. ليحدث في نفس التلقي هزّة الإعجاب بالتفاتات الشاعر الذكية، واندهاشه بمفاجآته"، (حكمت صالح، ١٩٨٤م، ص٢٦١).

وعودة إلى الغنى المعنوي والقناعة، فإن لهذا الغنى المعنوي، وهو غنى النفس القنوعة، الراضية بقضاء الله وقدره، إنما ينبثق عن إيمان عميق صادق، فيقول :

ومنْ نَـزَلتْ بِساحَتِهِ المنَـايا فــــلا أرْضٌ تَقيــهِ ولا سَماءُ
وأرْضُ اللهِ واســعةٌ ولكــنْ إذا نَـزَلَ القضا ضاقَ الفَضاءُ

لكن الجميل في البيت الأخير وجود الجناس غير التام المسمى بجناس القلب، لكنه من نوع قلب البعض. والجناس كما جاء عند أحمد المراغي، هو : "تشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلاف المعنى"، (أحمد مصطفى المراغي، ٢٠٠٨م، ص٢٩٧)، وجناس قلب البعض، هو جناس يتغير فيه ترتيب حروف الكلمتين، فانظر ما جاء عند الإمام الشاعر في قوله: (إذا نزل القضا، ضاق الفضاء)، فقد جاء عفويا: (قضا، ضاق)، وهو جناس تغير فيه ترتيب حروف الكلمتين. مما أعطى صورة بلاغية جميلة في حسن تخير الألفاظ.

إن البيتين الآنفين أتى بهما الشاعر ليذكرنا بالموت، وأن الأجل إن جاء، فلا راد لقضاءه، وحكم القدر واقع لا محالة. يقول الله عز وجل في كتابه الكريم (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت) ونستطيع أن نشعر بالصورة الشعرية الجميلة التي قدمها الشاعر لنا حين ربط بين القناعة المعنوية وبين الصورة المادية الحقيقية للرضا. وقد عكس هذه الصورة في استعارة مجسَّدة عندما قال:

ومنْ نَـزَلتْ بِساحَتِهِ المنَـايا فلا أرْضٌ تَقيــهِ ولا سَماءُ

فنرى كيف صوّر الشاعر المنيَّة، وكأنها جسد نزل بساحة شخص ليأخذه، فلا راد لمجيئه، ولا سبيل للتخلص منه. وبهذا نجد الشاعر يعلّق البيت بما قبله، يربطه بأن القناعة مفتاح السعادة ورأس الغنى المعنوي. فإن غدت القناعة تغمر في كيان المؤمن، فهو حتماً لن يرى في كل ما يصيبه سوى (إنا لله وإنا إليه راجعون)، فلن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا. وعلى هذا المنوال جاءت خاتمة القصيدة:

دَعِ الأيَّـامَ تغْدِرُ كُـلَّ حِيـنٍ فَما يُغْني عَـنِ المَـوْتِ الدَّواءُ

بناء القصيدة

مما لا شك فيه، فإن القصيدة تحمل في طياتها وحدة عضوية تهدف إلى إبراز التحلّي بالقناعة، والرضا بقضاء الله وقدره. فكانت القصيدة تحبِّذ المتلقي بالتأمل إلى واقع لا يعتريه الشك. هذا الواقع الذي أسرده الشاعر في كل بيت من أبيات القصيدة، مهما ذهب أو جاء، مرتبطٌ جداً بالقناعة والرضا بالقضاء والقدر.

وإذا كان شعر التأمل ينفر من الصور الشعرية ذات الدلالة الفردية، ويفضل الصور التي يستجيب لها الجميع؛ فالشافعي يقدم لنا أقوالاً، من واقع منظور وملموس. وعليه، " كانت موضوعات شعره تتفق مع

سياق حياته وتنسجم مع شخصيته الفقهية. وهكذا بعدت شعر الإمام الشافعي عن الأغراض التقليدية مديحاً وهجاءً، ولكنه كان صورة أمينة لحياته وواقع عصره"، (مجاهد مصطفى بهجت، ١٩٩٩م، ص١٩).

كما بعدت القصيدة عن عمود الشعر القديم من حيث الوقوف على الأطلال، وتعدد الأغراض. ذلك لأن الشافعي لم يعنِ بأن يكون ذلك الشاعر المتألّق الملتزم بعناصر بناء القصيدة الجاهلية – علماً بأنه ملمٌ بها – بل كان هدفه تقديم رسالة أخلاقية ودينية، في نظمٍ أدبي، كانت وليدة شخصيته الفقهيّة، ومسؤليته أمام ربّه.

الخاتمة

فالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد.

فهذا هو مشوارنا القصير في ربوع إمام الأئمة أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي. إمام أحد المذاهب السنيّة الأربعة، لكننل صببنا التركيز صبا على شاعريته. فالشافعي شاعر له من القصائد ما يدخل منها في المضمار الأدبي. بل ونرى أن هناك قصائد للشافعي يجب أن تدرس، ويؤخذ من أبياتها نماذج للتدريس، إعرابا وتحليلا وتوضيحا للمفردات. فقد وجدنا في شعره السهولة والسلاسة والوضوح. وأهم ذلك كله هو العفوية وعدم التصنع والتكلف.

بدأنا دراستنا بالتطرق إلى معرفة نشأة الشافعي والتي وجدناها كانت بسيطة ومتواضعة للغاية، ثم رأينا كيف كانت مثابرته وإصراره على طلب العلم مع أنه كان فقيرا. والمدهش في الأمر ما عرفناه من مقدرته في الحفظ، والتي أدهشتنا حقاً، كيف بصبي لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، استوعبت ذاكرته القرآن الكريم، والأحاديث، والموطأ، ودروس حلقات إمام المسجد الحرام، وأشعار الشنفرى، وهذيل، و..و..و. سبحان الله ولا قوة إلا بالله.

ومن هذه النشأة الاجتماعية، والعلمية برزت لنا ملامح هذه الشخصية، والتي عرفنا منها أنها عكست على شاعريّته. فكانت قصائده، والتي لا تتعدى بضع العشرين بيتاً، تعكس لنا صورة حياته، وعلمه، وحلقاته. ولم تكن نتاج تجربة شعرية مدارها الخيال والعاطفة الخالية فحسب، بل كانت تغرض إلى رسالة أخلاقية، ومشاريع إنسانية تحت منظور الرؤية القرآنية، والمدرسة النبوية. فنجد أن الشافعي لم يتبع ما تآلفت عليه العرب في مقدمة أشعارهم من الوقوف على الأطلال وذكر الحبيب، بل دخل مباشرة إلى غرضه.

وعرفنا أيضاً أنه كان ضليعا في اختياره للألفاظ وما يقابلها من مرادفات أو أضاد، فهذا أسلوب يرسّخ المعنى في نفس المتلقى. كما أن الألفاظ نفسها كانت تخرج عفوية بلا تصنع ولا تكلُّف، ذلك لأنها كانت تنبع من نفس صادقة وروح مليئة بالعلم والإيمان، فجاءت لتعبر حقا عما يجول في النفس والعقل والقلب. لذا نجد في كلامه الحكمة والزهد لدرجة أن الكثير من أبيات قصائده تؤخذ مثلا سائرا يتداولها ألسنة الناس.

ويمكننا تلخيص الجوانب الفنية في قصيدته:

١. جاءت قضية التقديم والتأخير في عدة مواضع لتعطي معاني ثانوية على المعنى الظاهر للبيت، ورأينا ماذا فعل عندما قال: (يغطى بالسماحة كل عيب، وكم عيْب يغطيه السخاء).
٢. جاء الطباق في مكانه، كما جاءت المقابلة في مكانها، وكلها جاءت عفوية مما أعطى جمالا في المعنى المراد إيصاله بالإضافة إلى التجميل الذي أحدثته تلك الصور البديعية.
٣. أحسن الشاعر بالإتيان بالتشبيه الضمني الذي رسم لنا صورة المستغيث وهو يستغيث بما لا يغيث.
٤. أفاد الشاعر من المجاز العقلي في مواضع كثيرة ليصور لنا أن كل ما يحدث ويدور من حولنا هو مجاز، يقوم بها من وما لا حول له ولا قوة بالقيام بها لولا قدرة الله وقضاءه. فكل حادث محدوث بقضاء الله وقدر، وكل حادث في هذه الدنيا زائل لا يدوم.
٥. ولا يفوتنا الجناس الذي جاء عفويا في (قضا، ضاق) وهو جناس قلب البعض.

هذا تقريبا ملخص نتائج دراستنا. رحم الله الشافعي، وجزاه الله خير الجزاء، عنا وعن أمة محمد جمعاء، وأسكنه فسيح جناته مع الأنبياء والشهداء، والصالحين والأولياء، وحسن أولئك رفيقاً. وألحقنا بهم برحمته وعفوه.. إنه سميع مجيب الدعاء.

ونسأل الله العلي القدير أن قد وفقنا في عملنا هذا، وأن يحببنا في العلم وطلبه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علَّمنا.. سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علَّمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

المصادر والمراجع

1. Al-Jarīm, ʿAlī, & Amīn, Muṣṭafā. 1996. *Al-Balāghah al-Wāḍiḥah*. al-Qāhirah: Dār al-Maʿārif.
2. Al-Marāghī, Aḥmad Muṣṭafā. 2002. *ʿUlūm al-Balāghah: al-Maʿānī, al-Bayān, al-Badīʿ* (Vol. 4). Bayrūt: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah.
3. Bahjat, Mujāhid Muṣṭafā. 1999. *Dīwān al-Shāfiʿī* (Vol. 1). Dimashq: Dār al-Qalam.
4. Fayyūḍ, Basyūnī ʿAbd al-Fattāḥ. 1998. *ʿIlm al-Bayān* (Vol. 2). al-Qāhirah: al-Mukhtār li al-Nashr.
5. Khafājī, Muḥammad ʿAbd al-Munʿim. 1984. *Dīwān al-Imām al-Shāfiʿī* (Vol. 1). Bayrūt: ʿĀlam al-Kutub.
6. Ṣāliḥ, Ḥikmat. 1984. *Dirāsah Fanniyyah fī Shiʿr al-Shāfiʿī* (Vol. 1). Bayrūt: ʿĀlam al-Kutub.
7. Zarzūr, Naʿīm. 1984. *Dīwān al-Imām al-Shāfiʿī* (Vol. 1). Bayrūt: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah.